

الحرب والتحالف في المجتمع البيضاني قبل الاستعمار

مقاربة أنثروبولوجية.

فايز عبد الحميد - المغرب

ملخص

يدرس هذا المقال الطبيعة السياسية للمجتمع البيضاني زمن الحرب من خلال قراءة القواعد التي تتمحور من خلال تحليل إواليات التحالف السياسي الحربي، بينما استرعى انتباهنا على الخصوص محاولة التمييز بين أنظمة التحالفات القائمة على المركزية السياسية في مجال الإمارة التي تمنح للقبائل القدرة على الانتظام تبعاً لشبكة العلاقات السياسية بين الأمير ومقريه، وبين القبائل التي انشقت عنه. ومن جهة أخرى نهتم بدراسة الأحلاف الحربية زمن الحرب في النظام القبلي استناداً على قراءة مقارنة بين النظامين معاً، ومثله، وعمدنا إلى تحليل إواليات التحالف بناءً على مداخل عديدة، أهمها استراتيجيات إدماج الدخلاء واستبعادهم زمن الحرب من الرئاسة، وكذا مرونة التحالفات وخضوعها لقواعد متغيرة باستمرار.

كلمات مفتاحية: الحرب، التحالف، المجتمع البيضاني، الصحراء، السياسة

Résumé

En se basant sur l'analyse du discours de référence, autour de la nature politique de la société maure, nous travaillons sur l'étude des règles qui tournent sur la définition de la nature politique de la société en temps de guerre à travers l'analyse des systèmes d'alliance politico-militaire, en essayant d'exprimer les bases des systèmes dualistes à partir desquels s'organisent les systèmes d'alliance, basés sur la centralisation politique dans le domaine de chefferie qui donne aux tribus la capacité de s'organiser conformément au réseau des relations politiques entre l'émir et ses proches ainsi entre les tribus qui ont rompu avec lui. D'un autre côté nous sommes intéressés de l'étude des alliances militaires en temps de guerre dans le système tribal, ensuite la souplesse des alliances et sa subordination aux règles toujours en mouvance

Mots Clés : Guerre, Alliance, Société maure, Sahara, Politique.

تقديم

إذا كانت الحرب تلعب دوراً في تغيير التنظيم الاجتماعي للقبيلة، ومعه تقوم بدور شمولي في البناء الاجتماعي للقبيلة، ويتعلق الأمر تحديداً بوظيفة التخصص الحربي عند قبائل دون غيرها، ومن خلال ذلك، فإن قدرات الاستعداد عند القبائل تتمايز بناءً على محددات خاصة كقوة الحراسة وحيوانات الركوب وآليات الاقتتال وأدواته... ، وهي عوامل تتكامل مع طبيعة التغيير السياسي الذي يفرضه زمن الحرب على القبائل البيضانية، وتتصل مناقشتنا في هذه المقالة، بتحليل الطبيعة السياسية

للحرب، وسنختبر ضمنها متانة المرتكزات السياسية المرتبطة بالهيكل السياسي والمحلي، بالمعنى الأنثروبولوجي، الذي يحتضن المجتمع البيضاني، وناقش فيه "مركزية السلطة"، وإواليات تشكل الأحلاف السياسية الحربية وطبيعتها الحركية والمرنة، إذ تهدف هذه الدراسة إلى قراءة إواليات التحالف السياسي الحربي، بينما استرعى انتباهنا على الخصوص محاولة التمييز بين أنظمة التحالفات القائمة على المركزية السياسية في مجال الإمارة التي تمنح للقبائل القدرة على الانتظام تبعا لشبكة العلاقات السياسية بين الأمير ومقربيه، وبين القبائل التي انشقت عنه. ومن جهة أخرى نتم بدراسة الأحلاف الحربية زمن الحرب في النظام القبلي استناداً على قراءة مقارنة بين النظامين معاً، ومثله، عمدنا إلى تحليل إواليات التحالف بناءً على مداخل عديدة، أهمها استراتيجيات إدماج الدخلاء واستبعادهم زمن الحرب من الرئاسة، وكذا مرونة التحالفات وخضوعها لقواعد متغيرة باستمرار.

أما الإطار الزمني لهذه الدراسة فيمتد من القرن التاسع عشر إلى حدود دخول الاستعمار سنة 1934، وقد جاء اختيارنا لهذه المرحلة الزمنية تحديداً، انطلاقاً من أن مجال البيضان في هذا الزمن بالذات قد عرف تحولات اجتماعية وسياسية تتصل بحركية القبائل ودينامياتها المحلية، ودخول السلاح الناري المعروف "بالرورار" منتصف القرن التاسع عشر، وضعف المخزن في الجنوب المغربي، وتواجد المؤسسات الأوروبية على طول الساحل وإلى الدخول الفرنسي إلى السنغال¹. هذه العناصر انعكست بصفة جوهرية على المجال الذي ندرسه، وشكلت عنصر الجاذبية بالنسبة إلينا.

هذه العناصر الأولية سنطلق منها لتحليل الطبيعة السياسية للحروب، وتصل هذه النقاط بتحديد التدخلات الأساسية للحرب السياسية بالمجال البيضاني، حيث قد وضعنا قضية "التحالفات

الحربية" وطبيعتها في جوهر اهتمامنا، إذ أن نشوء التحالفات وقواعده يؤسسان لآليات معقدة لا يمكن إدراك منطقتها إلا بفهم قواعد بناء التحالفات نفسها.

ولا يسعنا في هذا المقال أن نعمق البحث في تعريف الكيان القبلي، فقد أحاد في ذلك عدد من الباحثين الذين تناولوا بالدراسة مجتمع البيضان²، إلا أننا، نتفق تمام الاتفاق، على أن القبيلة، كما نريد أن نناقشها في هذا المبحث تتصل بالتعريف الذي وضعه عبد الودود بن الشيخ لها، كواقع سياسي، حيث تبدو القبيلة البيضانية في فترة ما قبل الاستعمار قبل كل شيء واقعا سياسيا أكثر مما هي كيان ديمغرافي من حجم معين... أو كوحدة نسبية أو سكنية ذات حدود واضحة، وهي واقع يتطور ويتسع ويضيق، يقوى أو يضعف بحسب الظروف التاريخية والمناسبات الداخلية أو الخارجية³.

ومنذ مورغان الذي حاول أن يتصور القبيلة ضمن نموذج تطوري، بوصفها حالة من التطور الأولي، أي "البربرية"، التي تسبق حالي "الوحشية"، و"الحضارية"، كما تقع هذه القبائل في حالة نزاع مستمر مع القبائل المتأخرة⁴، وبذلك فإن مورغان يضعنا أمام القبيلة كتجمع ما قبل سياسي، هذه الرؤية التي تبناها مورغان، استنسخها إنجلز ضمن تصور خاص يقوم على تحليل ما تسميه الماركسية ب "البنى الفوقية" ويستغرق في شرح أفكار مورغان حول عشيرة الإيروكوا حول الحروب والتراعات الدائمة⁵، وبشكل أكثر تعقيدا، اتجه التطوريون الجدد، مع ساليتر⁶ على الخصوص، إلى محاولة تزييل هذه القراءات بمحاولة إدخال بعض العناصر التي أهملها مورغان، خاصة مفهوم "الهرمية"، لكن ضمن تصور جامد يجعل من القبيلة شكلا خاصا من التنظيم الذي يشغل زمنيا مرحلة أولية من التاريخ الإنساني. وإن ما يجمع هذه التصورات، وهو ما يفيدنا في مقالنا، أن النظام القبلي، عند هؤلاء يقع في مرحلة ما قبل الدولة، ومثلما اتجه كلاستر إلى نقد الاتجاهات التي تنفي عن القبيلة صيغة التجمع

السياسي⁷، فقد نبه غودوليه إلى الأزمة التي طالت المفهوم من خلال إثبات عدم جدوى هذه التحليلات التي لم تراعى الدلالة الأنثروبولوجية للمفهوم نفسه⁸، فقد عملت اتجاهات عدة، محاولة إبداء التعارض بين فكري الدولة القبلية. ورغم التحليلات العميقة والميدانية التي عرضها جورج بالاندييه في مؤلفه عن الأنثروبولوجيا السياسية حول القبيلة ككيان سياسي ومؤسسي⁹، فإن أولى المحاولات التي رسخت هذا التصور في إفريقيا على الأقل، قد تبذرت في المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه إيفانس بريتشارد و"مير فورتز" حول "الأنظمة السياسية الإفريقية"¹⁰، هذا المؤلف أبدى تطورا ملحوظا في دراسة النظم السياسية، من خلال المنظور الانقسامي.

لقد اضطلع هذا المؤلف الجماعي بوصف الأنظمة السياسية بإفريقيا من خلال التمييز بين نوعين اثنين من الأنظمة السياسية، كما يعرض إيفانس بريتشارد في تقديمه للكتاب، فالمجموعة الأولى التي تتميز بمركزية السلطة وتواجد الأجهزة الإدارية والمؤسسات القضائية. وما يهمنا من هذه الدراسة تحديدا، ما قام به إيفانس بريتشارد في ما يسميه بـ "الفوضى المنظمة"، حيث لا ينفي وجود قانون عند النوير، وحيث أنه يضع ضمن هذا التصور، هذه المجتمعات "بلا دولة"، وكأها، فضلا عن أنها تقوم على قرابة النسب الأبوي الذي يخضع لثنائية الانصهار والانشطار، فإنها في الوقت ذاته، تحتكم لمنطق النزاعات القبلية حيث لا وجود لهيكل ناظم لها (أي الدولة)¹¹.

بينما عمل المؤلف الذي صنفه وجمعه ميدلتون حول "القبائل بدون نظام" في محاولة تكييف التصورات الانقسامية على مجموعات إفريقية، على تتبع التحليلات التي وردت في المؤلف الجماعي الذي ذكرناه توا، إلى تقسيم هذه المجتمعات إلى ست مجموعات كبرى، وقد اهتمت هذه الدراسات بتحليل أربعة مباحث رئيسية أولها أهمية دور القرابة والنسب في بناء تصورات الجماعات المحلية وتعزيز

الانتماءات القبلية، ومدى التوافق بين فكرة الترابط القرابي ودرجة الاستقلالية السياسية في مستوى ثان، بينما اهتم المبحث الثالث بتحليل الوظائف السياسية للمجموعات، بينما اتجه المبحث الرابع إلى إبراز ميكانيزمات عمل العنف في هذه المجتمعات¹².

هذه التحليلات الأنثروبولوجية، التي عرضناها بشكل مختصر بما يتوافق مع إشكاليتنا، قد أسست لا محالة لتطور الأنثروبولوجيا في دراسة المجتمعات القبلية، والحالة هاته، سنحاول أن نقرب من تحليل الطبيعة السياسية للحرب، انطلاقا من هذه التصورات التي عرضناها، حيث سنقوم، بوعي أو بدون وعي، بتبني اتجاهات تحليلية أو تفسيرية دون أخرى، ومثله، فإن دراسة النظام السياسي البيضاوي سيحيلنا على تحديد ماهيته.

قواعد التحالفات الحربية

تطلعنا أنظمة التحالف السياسي في المجتمع البيضاوي، على قواعد خاصة لبناء التحالفات على المستويين الأفقي والعمودي، كما أن الحلف الحربي، يحتفظ لنا بإليات خاصة لا نجدها في التحالفات السلمية، وهكذا نجد أن متركزات التحالف في حالة الحرب تكون محكومة بأنظمة معقدة لا يمكن تفكيكها، وإذا ما أردنا أن ندرك مستويات التحالف الذي ينظم هذه القواعد فإننا نجد أنفسنا أمام ركيزتين أساسيتين: الأولى تتصل بنظام الأحلاف القائم على القرابة وثانيها يبنى على نوع من المصلحة السياسية التي تبديها المجموعات القبلية.

يقدم لنا يوسف شلحد في مقاله الرصين حول "الأنظمة الثنائية في المجتمع البدوي" وهو يحلل المجتمعات القبلية بالمشرق، وصفا دقيقا لما أسماه التنظيم الاجتماعي الثنائي، بعرض فكرة التحالفات نفسها وكأنها تستجيب لهذه الثنائية، هذا التنظيم الثنائي للتحالفات لا تختص به الجماعات الرعوية

و فقط، بل يتعلق أيضا بالمجموعات المقيمة نفسها، هذه الثنائية في النسق السياسي تتأسس بالضرورة على تجاوز فكرة الانتماءات القبلية النسبية نفسها¹³.

يبرز لنا تحالف "المثاليث" في منطقة الحوض، مدى صلاحية فكرة تعميم التحالفات التي لا تخضع بالضرورة للمعطى النسبي، إحدى أهم هذه التحالفات التي تؤسس لهذا التصور، ففي وقعة تادمكت التي تذكرها مصادر عدة، وكانت وقائعها في سنة 1806 م، وقد جرت بين أمير إدوعيش محمد ابن احمد شين والمثاليث: "وقد استحر القتل في أهل اسويد يوم تاكدت (...). ويذكر أن محمد بن بكار بن أعمر حضر يوم تكدت مع ابن أخيه الأمير محمد بن احمد شين وكان شيخا طاعنا في السن قد جرب الحروب وخاضها ولم ينس مقتل أخيه الأمير سيدي أحمد بن بكار بن أعمر وكان بعض قتلته في جيش الأمير محمد والبعض في جيش المثاليث فقال محمد بن بكار: "ما كنا نستغي عن هذه الحرب: رميناهم فأصبنا الرسول، ورمونا فأصابوا دية"¹⁴.

توضح هذه الوقائع مرونة التحالفات وحركيتها، فضلا عن خضوعها لمنطق المصالح السياسية، فأهل السويد" المنتمون سابقا لإدوعيش، قد التحقوا بالمثاليث، وهذا اللفظ قد أطلقه إدوعيش على أولاد امبارك وأولاد الناصر وأهل اسويد بعد أن التحق أهل اسويد بالحلف تاركين قبيلتهم إدوعيش¹⁵. إن الحديث عن إواليات التحالفات، ومنشأها، سيدخلنا لا محالة في مناهات تفصيلية لا حدود لها، وتتعلق بطبيعة نشأة التحالفات القبلية، وأسبابها، في الإمارات البيضانية على وجه الخصوص، غير أننا نميز بين مستويين من التحالفات: الأولى: تتم على مستوى القبيلة وثانيا: التحالفات الخارجية.

إن حالة "اللاتنظيم" التي نلاحظها في التحالفات الحربية تستدمج طبيعتها النبوية من النظام السياسي نفسه، حيث لا يمكن وصفها "بالتحالفات اللحظية أو الخاضعة لمنطق الصدفة أو المبادرة الفردية، وعلى العكس، وإذا قمنا بتحليل حالات التحالف زمن الحرب، أو الاستعداد لها، فإننا سنصطدم بالسلمات التي تحدثنا عنها سابقاً، أضف إلى ذلك سمة "الاستمرارية"، إذ إن قاعدة التأسيس للتحالفات تتم من خلال قراءتنا للوقائع الحربية، واتجاهات التحالف في النظام السياسي الأميري والقبلي، التي تتجه نحو تأكيد إوالتين متعارضتين، وهو ما يلاحظه بونت في إمارة آدرار، ففي بداية القرن الثامن عشر عندما بسطت قبائل حسان نفوذها على الناحية الغربية من آدرار الغربي وكانت هذه الناحية آنذاك تحت سيطرة إديشل، فالظروف التي تمت فيها إقامة الإمارة بدت أنها نتيجة الطائفية الانقسامية. كان إيدشل منقسمون دائماً حول طائفتين ثابتتين، وكانوا يعقدون تحالفات طائفية مع قبائل هي في الأصل أولاد غيلان والجعفرية التي تنحدر منها السلالة الأميرية والتي هي نفسها مقسمة إلى طائفتين متنازعتين حول عثمان بن الفظيل وعبد الرحمن ولد حم. فمن هذا النسق الواسع من التحالفات الطائفية (الزواجية فأم عبد الرحمن من إديشل) انبثقت تدريجياً التراتبات المترلانية، ووقع تمركز مواقع السلطة الذي آل إلى نظام سياسي مبني على تشكيلة أخرى للتحالفات أسميها الطائفية السياسية. إن الاستمرارية بين الطائفة الانقسامية والطائفية السياسية تظهر من خلال إدانة نظام ثنائي للتحالفات داخل هذه المجتمعات القبلية"¹⁶.

يفيدنا تحليل بونت في قراءة ميكانيزمات التعارض المشكل لبنية الإمارة، لكن هذا التحليل ينعكس على قراءة أشكال التحالف الانقسامي المبني على "الطائفية السياسية" في المجال الأميري الذي يحتفظ بشكل شبه ممرکز للسلطة التي ترتبط بالأمير، ومعنى آخر، وكما يناقش بونت في إحدى مقالاته

عن الانقسامية والسلطة في المجتمع البيضاني، كيفية تشكل نظام أميري مركز السلطة ضمن شبكة تنظيم قبلي من جهة وأشكال منظمة من العلاقات السياسية والتراتبية التي تجمع بين المجموعات الاجتماعية المنضوية تحت الإمارة¹⁷. وهكذا فإن بونت يقوم باستعارة المفاهيم الانقسامية مطبقة على المجال الأميري لكن بشكل أكثر عمقا ودلالة.

هذه القراءات التي يقدمها بونت، لا تتوافق بشكل كبير مع النظام القبلي ب "الساحل"، فكما حددنا قبلا، فإن النظام القبلي لا يتجه إلى تأكيد نوع من المركزية السياسية التي تسمح بوجود شبكة طائفية سياسية حول رأس القبيلة، وهكذا فإنه بالنسبة للمجال القبلي، فإنه محكوم بنوع من التحالف، الذي لا يمكن وصفه بالبساطة، ولكنه يركز على قواعد لا تنبني على قاعدة المركزية السياسية. وتسمح حالات تمركز السلطة بتعميم حالة التحالف تبعا لصيغ محددة. وبهذا المعنى تنبني قواعد التحالف في المجتمعات القبلية على استراتيجيات محددة، يمكن وصفها انطلاقا من محددين رئيسيين: الأول يتعلق بالنظام القرابي الذي تنتظم من خلاله تحالفات النسب، ومن جهة أخرى أشكال التحالفات السياسية التي تقعد لسمات خاصة للتحالف.

إن التحليل الانقسامي في شكله الجنبني مع إيفانس بريتشارد وإرنست جيلنر يسمح بإدراك قواعد التوازنات السياسية بين مختلف المجموعات خلال فترات النزاع، بينما لا تمكننا هذه التحليلات من إدراك شبكة التحالفات المحكومة بغايات سياسية، وبعبارة أخرى، فإن النظرية الانقسامية مع جيلنر، على الخصوص، لا تمكننا من النظر إلى التحالفات الخارجية ضمن النسق السياسي العام، حيث يمثل النظام القبلي بنية مغلقة يقود فيها التحالف "إلى استقرار اجتماعي يضمنه التعارض القائم بين

مختلف الجماعات في كل المستويات¹⁸، ومن جهة أخرى يظهر المجتمع كأنه منفصل عن صيرورة تشكله تاريخيا.

كل هذه النقاط في هذا المستوى لا تساعدنا على تبني الطرح الانقسامى في شكله التقليدى، فمؤذج التحالف المؤسس على ثنائية التعارض، لا يمكن أن يفسر لنا قواعد التحالف التاريخى مثلا، إن اتجاه الرقيبات، بعد مرحلة حمل السلاح إلى التخلص التدريجى من حماية الحلف التكنى يبرز لنا كيف أن نواة تشكل التحالف، تتغير باستمرار تحولات القبيلة ذاتها، ومثله، فإن قراءة التحالف الركبى التكنى في نواته الأولى كما يلاحظ مصطفى ناعيمى، سيوضح كيف أن التنظيم السياسى والعسكرى للكيان القبلى يسمح بدخول القبيلة في غمار تحالفات أخرى تتماشى مع قدراتها السياسية والعسكرية والاقتصادية. إذ "إن حماسة هذه النواة كانت تمثل يومها دليلا ناطقا عن سمعة المحمي الركبى كرجل دين يفرض وجوده الروحى بشكل واضح. ندرك إذن في أية ظروف موضوعية أصبح أيت يعلى أحوال الركيبات الكواسم ومارابط ذوي السلطة العسكرية والسياسية يومئذ أحوال الركيبات الفقرا وسلام المعقلين أحوال أولاد داود وأهل ابراهيم. فندرك إلى أي مدى توجز أبواب المخطوط الأربعة الأولى الشبكة التحالفية التي تعمل على استقرار واستمرار الشكل المورفولوجى للنواة الركبىة¹⁹.

إن بدايات تشكل النواة العسكرية منذ 1797 م، للقبيلة، التي يؤرخ لها نص الجوامع في "أول من تقاتل معه الرقيبات"، تبين كيف أن التخلص التدريجى من التبعية لتكنة يوضح لنا احتفاظ التحالفات في زمى السلم والحرب، على إواليات التوازنات السياسية، ويذكر ابن انتهاه رواية أخرى تؤرخ لترسخ النواة العسكرية لدى الركيبات:

"واشتغل أحمد بن محمد في أهل الساحل وحاصر بني دليم عند أربيك تكياس قريبا من الخط مما يلي اتراكلين حتى أعطوه ما يريد منهم كرها ولم يسبق إلى هذا الفعل بقوتهم وكثرتهم وكون الأرض أرضهم وهو الصائل عليهم. دفعوا له ما أراد من الإبل ومكثت الحلة في الساحل في أرغد عيش حتى مضى عليهم الصيف ثم لم يفارق بني دليم حتى ترك العداوة بينهم مع اركيبات الذين لا قدرة لهم على حرهم وكان السبب في ذلك أن خياما من أهل الثروة من أبناء تيدرارين غفر لأحمد محمد يقال له آل لخرياشي وآل أباه أراد أبناء دليم أخذ الغرامة منهم وأبناء تيدرارين ممتنعون فأراد أبناء دليم فرض الغرامة وحرهم وإذا أبناء تيدرارين أصحاب أحمد بن محمد كما ذكرنا وإذا ظلم الجار إذلال المخير فلما نظر أحمد بن أحمد وإبراهيم بن مكينة ذلك لم يسعهم الصبر لما ذكرنا من ذكر الجار وإذا أبناء بني دليم في قلوبهم لهم من الحقد لم يخطر لأحمد بباله وإذا اركيبات تقيمهم عليهم كلمة وإذا هم لم يحرقوا في عامة الخلق إلا العار فهو حرثهم الثابت المثمر وبذلك كثرت أعداءهم وفي المثل من كثر تعديه كثرت أعاديه فلما وقع الشنآن بين بني دليم وأبناء تيدرارين لم يمكنهم المقام في تلك الأرض من كثرة عدوهم فروا من تلك الأرض قاصدين تكتة فظاهر أحمد بن أحمد بين اركيبات وأبناء تيدرارين وظاهرهم مع أبناء يحيى بن عثمان فلما أراد أحمد القفول هو ومن معه تركوا بين أهل الساحل حربا يشبه الاتفاق بين الزوال فاشتعل الحرب بين الفرق المذكورة ورجع أحمد بن محمد وإبراهيم بن مكينة بغنيمة وسلامة"20.

إن نص الجوامع يوضح لنا الوجه الآخر للتحالف في منطقة الساحل، كما لم يذكر ابن انتهاه السمسدي، في هذه الحروب، "هذا وإن الرقيبات في زمر متفرقون. وقد ذهب رجل من الفقرا يبيع القطران فقتله أبناء دليم. فأتى الخير للرقيبات بأن عشرة رجال من أبناء دليم يأخذون المغرم من أبناء

تيدرايين. فركب وفد من الرقيبات وقتلوهم (حيث) يؤرخون بموت العشرة. وبعد ذلك أغار الرقيبات على أبناء دليم عند اكيندلف (...). ولم تتوافق الناس على الشر فعفى محمد بن الخليل ومن معه من أبناء موسى وما بقي من الشر. لكن اشتد الحرب فرحل أبناء دليم ونزلوا على أزركيين وعرقبوا على عابدين بن بيروك واحتفى لهم آيت الجمل وموهم. (كما) احتفى آيت بلة للرقيبات ونزل الرقيبات عند أزار عام أحد عشر من القرن الرابع عشر والتحم القتال وكثرت الخطوب والمهموم (...). فصار أهل وادي نون على فرقتين آيت بلة مع الرقيبات وآيت الجمل مع أبناء دليم، ودام الحرب بينهم وكثر القيل والقال ودام الشأن وانقطعت الطرق²¹.

إن هذه المرحلة الثانية، التي تجاوزت فيها الرقيات علاقات التحالف القائمة على حماية تكنة، وإذا كان الدليميون قد استأثروا بصورة محرك هذه النزاعات، كما تقدم لنا الرواية المصدرية، فإن هذه العلاقات التحالفية الحربية ستسحب على محمي أولاد دليم أيضاً، فقد ذكر المختار بن حامد في موسوعته ضمن الجزء المخصص لقبيلة أولاد تيدرايين ما نصه:

"ورغم اشتهاار الصلاح في أولاد تيدرايين فقد ظلوا حملة سلاح ودافعوا باستمرار عن مواطنهم في الساحل. وخاضوا في ذلك حروبا عظيمة مع العديد من القبائل التي اندثر معظمها في الساحل(.....)، كما خاضوا حروبا عظيمة مع أولاد دليم وكسروا شوكتهم. واستمرت آخر هذه الحروب ثماني سنوات من 1205 هـ إلى 1212 هـ"²².

تمكننا هذه الروايات الثلاث للحروب التي ذكرنا، رواية نص الجوامع والسمسدي والمختار بن حامد، من وضع صياغة شاملة لنظام التحالفات بين مجموعات قبلية متباعدة في المجال، فكما يركز لنا صاحب نيل الأوطار على دور أزار في صد الهجمات الدليمية على كل من أولاد تيدرايين

والرقيبات، فإن رواية نص الجوامع تطلعنا على منطق التحالفات بين مختلف قبائل الساحل، ومن جهة
ثالثة يسلط المختار ابن حامد الضوء على العلاقات التراتبية والتبعية بين مجموعتين قبيليتين إحداهما تمثل
"الصلاح" وأخرى تقدم نموذج "حمل السلاح".

مسألة ثانية في غاية الأهمية تتعلق بوضعية "الدخلاء" زمن الحرب، وهي ظاهرة أنثروبولوجية
ناقشها بتفنن كبير عبد الله حمودي في نقده غيلنر، وهي تفسر آليات الطرد القبلي الرمزي من القيادة
السياسية لكل دخيل على القبيلة وهو ما نلاحظه في معظم القبائل الصحراوية، ويتعلق الأمر دوماً،
بالرئاسات السياسية والحربية، إذ أن "ضمين الغزي" و"شيخ القبيلة" يتم اختيارهما من ذوي الأصول
النسائية "الأصلية"، بينما تتوقف أدوار "الفئات الدخيلة" في حالة الحرب، مثلاً، على إمداد القبيلة
بالرجال المحاربين دونما تكليفهم بأدوار رئيسية.

ينبغي تعيين الرئاسات الحربية على تغلب العصابات الداخلية، ومثلما تُوضح ظواهر إدماج
العناصر الدخيلة في القبيلة عن الوظائف الإيديولوجية للنسب، فإن لحظة الحرب أو تعيين زعماء جدد
تكشف لنا عن مسألة التعيين التي انتبه لها عبد الله حمودي في نقده لجيلنر، حيث أن هناك ظاهرة يبدو
أنها لم تثر انتباه الباحثين الآخرين الذين اعتمدوا النظرية الانقسامية، وهي عملية اختيار الجد، عندما
يتعلق الأمر بقسمة قبيلة تتكون من عناصر لا تنتمي إلى نفس الأصل. هذه الظاهرة شديدة الانتشار،
تحدث في ظروف الحرب والغزو أو عندما يغير أناس لسبب أو لآخر انتماءهم على مستوى السلالة أو
القسمة القبلية أو القبيلة، أو على المستوى الجغرافي بالتروح من منطقة إلى أخرى²³.

بالعودة إلى نص الجوامع نجد أن خبر الحرب يستدعي في المقام الأول اجتماع آيت الأربعين التي تختار رجالا منها ينتمون لمختلف القسمات التي تتشكل منها قبيلة الركيبات، وسنرى، بعد أن نستعرض رواية نص الجوامع خلفيات هذا التعيين وأبعاده.

"فلما بلغ الخبر لعامة الرقيبات اجتمعوا وانتدبوا رجالا من أعيانهم وذلك عام أحد عشر من القرن الثالث عشر. والرئيس في ذلك الزمن اعلي بن بلاو والرجال المنتدبون من أولاد القاضي: محمد شين، ومن أولاد لحسن اعلي بن عبد الله ومن أولاد الحسين باد، ومن السواعد الفاضل بن إبراهيم، ومن أولاد الشيخ: لمصاوب، ومن أولاد الطالب سيد اعلي، ومن التهالات، عمار بن التهالي، ومن أهل ابراهيم أداود بن سيد علال، ومن الابيهات أحمد بن الدا اعلي، ومن الفقرا أحمد بن لحسن. وجعلوا آيت اربعين وقدموا عليها اضعير بن باب المساوي ثم الميبي ونزل الرقيبات بشاطئ الساقية الحمراء من فم واد النبط ومدافع السمات وترقت. ونزل تحكانت من عند فم تازو ومدافع لكواير وجالت بينهم تكنة وأولاد أبي السباع والعروسيين وأولاد دليم. فأولاد أبي السباع والعروسيين وبني دليم حمية لتجكانت وجميع تكنة حمية للرقيبات. وكل طائفة من الفئتين جاعلة ما عندها من المواشي في المرباط²⁴.

يحفل النص بالإشارات التي تحيل على دور العصبية الداخلية في تشكيل الوحدات الحربية إذ تشترك مختلف القسمات التي تتفرع عنها فروع القبيلة في بناء تحالف داخلي قوي يتشارك في كل فرع بتمثيلات رئاسية، هذه التمثيلات ترتكن إلى آلية ديمقراطية كما هو موضح من خلال النص، على الأقل ظاهريا، " فلما بلغ الخبر عامة الركيبات اجتمعوا وانتدبوا رجالا من أعيانهم. غير أن فهم موازين القوى بين الفخذات ذاتها يدفعنا إلى إعادة الاعتبار في فكرة "تساوي القسمات أثناء الحرب"، فالفروع

التي تمتلك القوة البشرية والعسكرية معا إلى جانب عدد المحاربين، تحظى بتمثيلات أكبر كما هو الشأن مع الفروع الكبرى للركيبات، ف "أولاد القاضي" و "أولاد لحسن" و "أولاد الحسين"، وهم ينتمون إلى بطن "أولاد موسى"، نخدمهم قد استأثروا بالتمثيلية الكبرى في هذه الحرب، في حين يمثل السواعد وأولاد الشيخ وأولاد الطالب برجل واحد فقط من ركيبات الساحل، ومن ركيبات لكواسم يمثل لبيهاة والفقرا كل منهما برجل واحد... في حين تغيب فروع أخرى عن هذه التمثيلية الرئاسية كفروع كأولاد أمي (الذين استنوا لوحدهم ضمن فروع أولاد موسى من التعيين الرئاسي) وأولاد محمد موسى من اركيبات الساحل ولعيائشة (أهل بلال وأهل بيلال) من اركيبات لقواسم.

إذا ماعدنا للمونوغرافيات المنجزة عن قبيلة الركيبات فسنجد بعض المعلومات المهمة التي ستساعدنا في فهم هذا التوازن العصبي المبني على "الديمقراطية الشكلية"، ويسعفنا كتاب مول مارتى²⁵ في النقاط بعض الإشارات ذات الصلة بموضوعنا. إن أولاد موسى الذين تبلغ عدد خيامهم 700 خيمة يتشكلون من خمسة فروع: هي أولاد القاضي، أهل بلاو، أولاد أمي، أولاد لحسن، أولاد الحسين، بينما لم تشارك في التعيين الرئاسي أي من الفروع الدخيلة التي ذكرها بول مارتى كأهل محمود سالم الذين ينسبهم مارتى لمدلش²⁶. بينما يذكر أن رئاسات أولاد موسى قد تناوبت عليها عدة فروع أهمها أولاد بلاو الذين ترأسوا أولاد موسى في القرن التاسع عشر. ومن جهة أخرى فإن خيام أولاد موسى الذين اختير منهم القائد، من أهل بلاو، كما يذكر صاحب الجوامع، ومثلت فروعهم بأولاد لحسن وأولاد الحسين، يمثلون أكثر كثافة سكانية ضمن خيام اركيبات الساحل، "حيث تبلغ عدد خيام السواعد 600 خيمة، وأولاد الشيخ 200 خيمة، أولاد داوود 200 خيمة، أولاد الطالب 200 خيمة، التهالات 200 خيمة، بينما تبلغ خيام أولاد موسى 700 خيمة"²⁷.

إن حالة الحرب الخارجية تقوي آصرة اللحمة مع أبناء العمومة، ولو مؤقتا، وتقوي من حالة "اللاشعور الاجتماعي والسياسي للقبيلة" إذ أن اجتماع فروع القبيلة في زمن الحرب يمكن مختلف القسمات من تعزيز عصبياها الداخلية، ومن جهة أخرى إرساء نوع من "الديمقراطية القبلية الظاهرية"، التي تختفي وراءها أشكال غير متناهية من "اللامساواة" بين القسمات بحسب الأصول، وعدد المحاربين، والقرب من زعيم القبيلة.... إذ أن "حالات التعيين" التي يصفها نص الجوامع توحى قطعاً بهذه التمايزات التي حللناها سابقاً في طبيعة تشكيل التحالفات الحربية.

خلاصة:

وفي كلمة واحدة، فإن أنظمة التحالف السياسي زمن الحرب لا تنتج لنا فقط توافقات على مستوى المصالح السياسية بين المجموعات القبلية، وإنما تنتج لنا تدبيراً مركزاً للتحالف في الإمارة على الخصوص، حيث تجري التحالفات وتنتفي حول دائرة الأمير ومقربيه، مما قد دفعنا إلى الحديث عن الطائفية السياسية، كما يخللها بونت، وهكذا فإن الأنظمة التعارضية للتحالف التي عرضناها تمتع من البنية السياسية شبه الممركزة، أي تنظيم سياسي متمركز ممثل في الإمارة يقوم بتدبير تنظيم قبلي يستند على الدفع بالتحالفات الانقسامية ضمن سياق شبكة علاقات سياسية تراتبية²⁸، بينما حاولنا من جهة أخرى أن نحلل الأنظمة التحالفية في زمن الحرب في بلاد الساحل تحديداً حيث يسود النظام القبلي بشكل خالص، وقد وجدنا أن النظام الاجتماعي، زمن الحرب، يحتفظ بإليات داخلية لخلق التراتب الاجتماعي بين القسمات الاجتماعية داخل القبيلة، وبعبارة أخرى، تعمل القبيلة على استدعاء إيديولوجيا النسب في زمن الخوف والحرب لإبعاد المجموعات الدخيلة، وكما أنها أدمجتها في زمن السلم لتعزز الكثافة البشرية للقبيلة وإمدادها بالمحاربين، فإنها زمن الطوارئ تستبعد عنها من دائرة السلطة.

1. Paul Pascon., « Rapport consulaire Mathews : Introduction et annotation », in Enjeux Saharien, CNRS, pp. 103-014

نقلا عن محمد دحمان، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر، الرباط، 2006، ص.

87.

2. انظر:

-Abdel Wedoud Ould Cheikh, Nomadisme, islam et pouvoir politique dans la societe maure precoloniale. xie-xixe siecle : essai sur quelques aspects du tribalisme, thèse du Doctorat en Sociologie, paris v, 1985, Thèse de sociologie, Paris V, 1985.

- Abdel Wedoud Ould Cheikh, Gast Marceau. Pierre Bonte, Edouard Conte, Constant Hamès, Al-Ansâb. La quête des origines. Anthropologie historique de la société tribale arabe, Edition de la maison des sciences de l'homme, Paris, 1991.

- Pierre Bonte, L'émirat de l'Adrar mauritanien. Harîm, compétition et protection dans une société tribale saharienne, Karthala, Paris, 2008.

- Rahal Boubrik, Entre Dieu et la tribu, Homme de religion et pouvoir politique en Mauritanie, publication de la faculté des lettres et sciences humaines, Publication de Université Mohammed V Agdal, Rabat.

- Villasante-De Beauvais, Parenté et politique en Mauritanie/essai d'anthropologie historique, L'Harmattan, Paris, 1998.

باللغة العربية:

رحال بوبريك، زمن القبيلة: السلطة وتبدير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي رقراق، الرباط، 2012.

محمد دحمان، دينامية القبيلة الصحراوية في المغرب بين الترحال والإقامة، دراسة سوسيو-أنثروبولوجية حول أولاد بالسباع، طوب بريس، الطبعة الأولى، 2012.

3. Abdel Wedoud Ould Cheikh, Nomadisme, islam et pouvoir politique dans la societe maure precoloniale. xie-xixe siecle : essai sur quelques aspects du tribalisme, thèse du Doctorat en Sociologie, paris v, 1985, Thèse de sociologie, Paris V, 1985, p. 473-474.

نقلا عن:

فليب مارشزين، القبائل، الإثنيات والسلطة في موريتانيا، ترجمة: محمد بن بوعليبة، منشورات دار جسور، الطبعة الأولى،

2014، ص. 32.

4. Lewis Henry Morgan, La société archaïque, Anthropos, Paris, 1971.

5. ف.إنجلز، أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة، مرجع سابق، ص 62.
6. Marshall Sahlins, Tribesmen, A study of segmentary society, Englewood Cliffs, Prentice Hall, New Jersey, 1972.
7. Pierre Clastres, La société contre L'Etat, Editions de Minuit, Paris, 1974.
8. Maurice Godelier, « Le concept de tribu : crise d'un concept ou crise des fondements empiriques de l'anthropologie », in Maurice Godelier, Horizons, Trajets marxistes en Anthropologie, tome 2, Maspero, Paris, 1977.
9. جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، مجلد، الطبعة الثانية، 2007.
10. E.E .Evans Pritchard et Meyer Forte, African Political System, Londres, 1940.
11. E.E .Evans Pritchard et Meyer Forte, African Political System, op.cit, p. 273-278-281-282.
12. Michel Izard, Françoise Izard. J. Middleton and David Tait (ed.), « Tribes without rulers. Studies in African Segmentary Systems », L'Homme, 1961, vol. 1, n° 3, p 115.
13. Joseph Chelhod, « Les structures dualistes de la société bédouine ». In: L'Homme, tome 9. n°2, 1969, p. 94.
14. المختار ولد حامد، حوادث السنين، تحقيق: سيدي أحمد بن سالم، أبو ظبي، 2011، هامش 9، ص 290 و 291.
15. نفسه، ص. 291.
16. بيزر بونت، إمارة آدرار الموريتانية: الحريم التنافس الحماية في مجتمع قبلي صحراوي، ترجمة: محمد بن بوعلييه بن الغراب، دار النشر جسور، انواكشوط، موريتانيا، ط.2، 2012، ص. 149.
17. Pierre Bonte, « segmentarité et pouvoir chez les éleveurs nomades sahariens : éléments d'une problématique » in Production Pastorale et société, Ed de la maison de l'homme, 1979.
18. إرنست جيلنر، "السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية"، ضمن الأنثروبولوجيا والتاريخ: المغرب العربي، ليليا بن سالم وآخرون، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، ط.2، 2007، ص. 47.
19. مصطفى نايمي، ضمن تعليقه على كتاب جوامع المهمات في أمور الرقيبات...، مصدر سابق، ص. 28.
20. عبد الودود ابن انتهاء السمسدي، نيل الأوطار في الغامض من الحروب والأخبار، مخطوط بحوزة عبد الله سعود، العيون، ص. 26 و 27.
21. محمد سالم الحبيب، جوامع المهمات، مصدر سابق، ص 93.
22. المختار بن حامد، حياة موريتانيا، جزء أولاد تيدرارين، مرقون بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص. 10.

23. عبد الله حمودي، "الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة، ملاحظات حول أطروحة جيلنر"، ضمن الأنثروبولوجيا والتاريخ، مرجع سابق، ص. 64.
24. محمد سالم بن عبد الحفي، جوامع المهمات..، ص. 83.

25. Paul Marty, Les tribus de la Haute Mauritanie, Comité de l'Afrique française, Paris, 1915, p. 37.
26. Ibidem.
27. Ibidem.
28. Pierre Bonte, « Tribus, factions et État. Les conflits de succession dans l'émirat de l'Adrar », Cahiers d'études africaines. Vol. 22 n°87-88, p. 510.